الألفاظ التاريخية
متحف اللغة

الأستاذ شفيق جبري

أولعت من حينٍ إلى آخر بتقليب النظر في معجمٍ من معجمات اللغة ، فما أكثر الأمور التي يقف عليها الإنسان في مثل هذا التقليب ، فقد يتبين له أن اللغة يجري عليها من القوانين ما يجري على عالم الطبيعة ، فقد يجري عليها التنازع على البقاء كما يجري عليها المذهب الذي اصطلحنا على أن نسميّه : التطور ، وقد يكون للبيئة آثار في اللغة كما يكون مثل هذه الآثار في عوالم الطبيعة ، والخلاصة فقد تقضي لفظة على لفظة فتحلّ محلّها أو يقضي مصدر على مصادر ثانية أو تعيش لفظة في بيئة وتموت في بيئةٍ ثانية ، ولكن هذا كله يستلزم بحثاً خاصاً ؛ فان غايتي في هذا المقال الإشارة إلى الألفاظ التاريخية وهي التي بطل استعمالها فذهبت بذهاب المسمّيات التي تدل عليها ، فهي تموت في اللغة لأسباب تاريخية ، ولذلك سمّيت الألفاظ التاريخية كما وضّح ذلك « دار مستتر » في كتابه : « حياة الألفاظ » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من هذا القبيل أسماء لبعض الآلات أو الحيوان أو الملابس أو السلاح وغير ذلك ، فمن الآلات مثلاً لفظة : الشَّجْب ، من جملة معاني هذه المادة : سِقاء يابس يُحرِّك فيه حصىً تُذعَّر بذلك الإبل . لاريب في أن هذا التفسير واضح لا لبس فيه ، ولكن ما هو هذا السِقاء ، ماشكله ، ما حجمه ، ما تركيبه ، إنا لا نعرف شيئاً من هذا كله ، فهذه اللفظة : الشَّجْب ماتت بموت المسمَّى الذي كانت تدل عليه .

ومن الآلات : الشُّكبان بالضم ، وهو شِباك للحشّاشين يحتشّون فيه ، فما شكل هذا الشباك .

ومن الأدوات لفظة : الشعيب ، وهي المزادة من أديمين ، أو المخروزة من وجهين . فمن منّا الذي وقعت عينه على هذه المزادة .

وإذا انتقلنا إلى عالم الحيوان فإنا نجد أن الشُّحْدُب ، كقنفذ ، دويبة من أحشاش الأرض ، فما هي هذه الدويبة ، وإني لأشك في أن عالماً من علماء الحيوان يعرفها .

ومن الحيوان أيضاً : الشُّنْقُب ، كقنفذ وقنطار ، وهو ضرب من الطير . فمن الذي يدلّنا على هذا الطير .

وقد مرّ بأشباه هذا كله في الثياب ، فالمدرعة ، كمكنسة ، ثوب كالدرّاعة ولا يكون إلاّ من صوف وتمدرع : لبسه ، فما هو هذا الثوب .

إن اللغة تشتمل على آلاف من أمثال هذه الألفاظ ، وقد فسّرها علماء اللغة تفسيراً لا غموض فيه على نحو ما قلت ، ولكنا على الرغم من هذا التفسير الواضح نعجز عن إدراك المسمّيات التي كانت تدل عليها هذه الألفاظ لأن العين لم تقع عليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد نشهد هذا الأمر في أكثر اللغات فاللغة الفرنسية مثلاً ماتت فيها أسماء كثيرة كانت تستعمل في القرون الوسطى ، لأن هذه الأسماء كانت تدل على أشياء اختفت ، أشياء من السلاح والآلات والعملة والملابس وغير ذلك ، كما كانت تدل على أمور معنوية واجتماعية وعلى أفكار وعلوم وأخلاق وتربية وألعاب ، وعلى بعض المؤسسات والحوادث ، وقد ذهب هذا كله بذهاب القرون الوسطى .

إن الألفاظ التاريخية إذا عُرضت على عين القارىء وفُسِّرت معانيها فإنها تحيي له ماضياً بأجمعه ، ولا يمكن بعثها وإحياؤها إلا بالتنقيب عن التاريخ فإذا بُحث عن مصادر التاريخ ووثائقه ظهرت للعيان ألفاظ كانت تدلّ على المسمّيات التي اختفت كما تظهر أيضاً حياة الماضي من العصور ، والخلاصة فإن جملة كبيرة من الأسماء اختفت دون رجوع ، وقد نجد في تنقيب علماء الآثار أشياء كثيرة نضع لها أسماء جديدة لأنا نجهل الأسماء القديمة التي كانت تدلّ عليها ، كما بيّن هذا كله « دار مستتر » في كتابه القيّم : حياة الألفاظ .

* * *

لقد اخترت لهذا المقال عنواناً غريباً : متحف اللغة ، فهل للغة من اللغات متاحف ! ولكني أرجو أن تزول غرابة العنوان . إن كثيراً من الأمم لها متاحف في بعض بلدانها ، تجمع فيها ما اهتدت إليه من آثار ماضيها في خلال التنقيب ، وقد تكون هذه الآثار من السلاح أو الثياب أو العملة أو الأواني أو العمران مما كان في ماضيها وذهب عنها في حاضرها ، فهي تجمع هذا كله في متاحفها وتُعنى به العناية كلها وتحرص عليه الحرص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كله ، وإذا قصد السيّاح هذه المتاحف نعموا برؤيتها وحدّثوا عنها ذويهم وأصحابهم في رجوعهم إلى أوطانهم ، فلماذا لا يكون للغةٍ من اللغات متحف خاص .

ولست أعني بالمتحف مبنى من المبـــاني ، وإنما أعني بذلك معجماً خاصاً تدوّن فيه الأسماء التي كانت تدل على مسميات في مواضي العصور ، وقد ذهبت هذه المسمّيات فنحن لا نعرفها وبقيت أسماؤها محفوظة في معجمات اللغة . وقد يكون للتصوير شأن كبير في هذا العمل ولكن التصوير لا يتم إلاّ إذا اهتدى علماء الآثار إلى المسمّيات التي اختفت ؛ وأظن أن هذا من مصاعب الأمور . من هذا القبيل مثلاً لفظة : الطارمة ، فقد مررت بهذه اللفظة في كتاب الأغاني ، ففتشت عن معناها في معجمٍ من المعجمات ، فلم أعثر على اللفظة ، وقد وجدتها في مقالٍ نشر في جريدة مصرية ، صاحب المقال أحد رؤساء الوزارة في بغداد في الماضي ، حُبس فكان يصف حبسه واستراحته في طارمةٍ ، فلجأت إلى معجم « دوزي » لعلي أهتـدي إلى معنى هذه اللفظة ، فوجدت صورة الطارمة في المعجم ، وهي عبارة عن غرفة صغيرة من خشب ، يجلس فيها المرءُ ويُطلّ من خلال الخشب على الحديقة ، فلو أمكن وضع معجمٍ للألفاظ التاريخية وتصوير ما أمكن تصويره من المسمّيات التي تدل عليها هذه الألفاظ لذهب شيء كثير من الغموض الذي غمرَ به في بعض الأسماء ولكني أعتقد أن مثل هذا العمل غير يسير .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net